صورة اليهودي في رواية

" الجانب الآخر لأرض المعـــاد "

د. علي محمد عودة *

---

*أستاذ الأدب والنقد المشارك ـ جامعة القدس المفتوحة

ملخص

تتناول هذه الدراسة صورة اليهودي في رواية " الجانب الآخر لأرض المعاد " لمؤلفها أحمد حرب وتُبرز ثلاثة نماذج أساسية لليهودي – الآخر:

- اليهودي البشع، الذي يمثّله جنود الاحتلال وضبّاطه.
- اليهودي المتطرّف، الذي يمثّله المستوطنون الجدد.
- اليهودي المتعاطف الذي تمثّله مجموعات دعاة السلام المزيفين واليهودية الهاربة من قدرها وعارها..

وتطمح هذه الدراسة إلى تحقيق هدف مهم من خلال عرضها لصورة اليهودي بطريقة مغايرة لما ورد في الروايات العربية، وهذا الهدف يتمثل في الالتفات إلى أهمية معرفة الآخر – اليهودي، الأمر الذي يساهم في معرفة الذات وتفحّصها وبالتالي مراجعة أخطاء هذه الذات وتدبّر طرق المعالجة.

Abstract

This study deals with the image of the Jewish in Ahmed Harb's novel "The Other Side of the Promise Land". The novel handles three essential models for the Jewish – the other. These models are:

- The ugly/mean Jewish, presented by the occupation officers and soldiers.
- The extremist Jewish, presented by the new settlers.
- The sympathetic Jewish, presented by the groups of false peace– bidders and the Jewess escaping her fate and shame.

Through displaying the image of the Jewish in a way that differs from the one presented in the Arabic novels, this study attempts to accomplish an important aim which is drawing the attention to the importance of knowing the other – the Jewish, the thing that contributes in knowing and examining one's self; consequently, reviewing its mistakes and finding the suitable remedies.

صورة اليهودي في رواية "الجانب الآخر لأرض المعاد"

مدخل:

واكبت الرواية الفلسطينية حركة النضال الفلسطيني منذ نشأتها، ومع وعورة الدروب والمنعطفات وجدت الرواية نفسها قد غرقت في رصد كثير من تفاصيل المسيرة الفلسطينية الصعبة ومتابعتها. خاصة بعد تنامي السلبيات وبروز الشعور بالتقصير لدى كثير من المثقفين الفلسطينيين، والمبدعين على وجه الخصوص..

وهكذا، حفلت الرواية الفلسطينية بلوحات "التعويض" ونقد الذات، التي جاءت تلبية لرغبة في التطهّر. وعبَّر كتّاب الرواية الفلسطينية عن هذه الحالة في مختلف أماكن ووجودهم وبأساليب أدبية متنوعة.. ففي الأرض المحتلة عام ١٩٤٨، كان إميل حبيبي رائداً في ممارسة النقد التهكمي والرغبة في " التطهر والتعويض "، كذلك مارس كل من غسَّان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا ورشاد أبو شاور هذه " العقوبة " كل بأسلوبه ومن خلال منهجه الفكري وموقعه الاجتماعي.

وخلال جدلية النقد والحوار والمثاقفة والرصد الاجتماعي والفكري كان يستدعي أحياناً ذلك الآخر، الذي هو سبب رئيس في جميع الهزائم والعثرات والانتكاسات، ونعني هنا الآخر – اليهودي. كان من المتوقع أن يحقق كتّاب الرواية العربية تطوراً في تصورهم ومعرفتهم بالآخر – اليهودي، وبالتالي التطور في " شخصنته " في رواياتهم وإبداعاتهم.. كان مؤملاً أن يحققوا ذلك، كما حققوه في تطور الأساليب والمناهج في نقدهم وتحليلهم لواقعهم وأسباب هزائمهم وقصور بيئتهم الاجتماعية والسياسية! بل كما حققوا ذلك في البناء الفني والمعماري لرواياتهم الجديدة. إلا أن ذلك لم يحدث! فالتفحص الدقيق للروايات العربية التي عرضت صورة الآخر – اليهودي وقدمتها، وكذلك فحص الرواية الفلسطينية في المنفى، يثبت أن تلك النماذج (اليهودية) التي عرضتها تلك الروايات ظلت أسيرة لتلك الصورة النمطية التي وجدناها في الرواية العربية قبل نكبة ١٩٤٨. فلقد غلبت على هذه الرواية نعوت اليهود بعبادة المال، وتسخيرهم نسائهم للوصول إلى أهدافهم واتهامهم بقتل المسيح ونعتهم بصفتي الذل والكفر الدائمين! وهكذا، امتلأت الرواية العربية بمفردات مكررة تنعت اليهود بأنهم لصوص وقتلة وسفّاحون وكلاب..[1] وهي نعوت وسمات، التقطها الروائيون

العرب من الرواية الغربية، والرواية الإنجليزية على وجه الخصوص..

ومن الكتّاب الفلسطينيين الذين حاولوا تقديم شخصية يهودية غير نمطية بعد نكسة ١٩٦٧، غسّان كنفاني. إذ قدّم في روايته " عائد إلى حيفا " بعض الشخصيات اليهودية، إلا أن هذه الريادة لغسّان لم تزوّدنا بشخصيات مقنعة ناميه.. بل إن شخصيات " عائد إلى حيفا " اليهودية جاءت لتعبّر عن أفكار مسبقة وكانت طرفاً في حوار مقصود، ولم تكن شخصيات من لحم ودم.. لم تكن شخصيات من صميم الحياة وإفرازاتها وتعقيداتها الحقيقية..

اليهودي في رواية الأرض المحتلة:

من خلال هذا العرض الموجز يتضح أن الرواية العربية في عقودها الخمسة المنصرمة ظلت عاجزة عن تقديم صورة مقنعة لليهودي – الآخر، رغم محاولات بعض الروائيين للإفلات من حالة القصور هذه، وهذا ما نعتقد أن رواية الأرض المحتلة قامت – وتقوم – بتعويضه.. إن رواية الأرض المحتلة تنفرد – بجدارة – في تقديم الشخصيات اليهودية متجاوزة بذلك الرواية العربية، بل شقيقتها الرواية الفلسطينية في المنفى..

لقد نسجت رواية الأرض المحتلة خيوط شخصياتها اليهودية من التجربة والاحتكاك مع الآخر – اليهودي، من الاشتباك اليومي معه، فجاءت هذه الشخصيات – في معظمها – ملموسة ومقنعة..

لقد قدمت رواية الأرض المحتلة نماذج لجميع شرائح المجتمع اليهودي تقريباً، فوجدنا اليهودي المثقف و" داعية السلام " والروائي والكاتب. كذلك اليهودي العامل المغلوب على أمره، والمقاول السكّير الجشع، كما نعثر على اليهودي الماكر المتدثّر بلباس الديموقراطية والثقافة الذي يحاول خداع بنات الفلسطينيين ويطلب الزواج منهن لاستغلالهن في مهام أخرى.. كما نجد الضابط الذي " يقرف " من الاستمرار في قمع الصبية وملاحقتهم. وكذلك وجدنا المجنّدة التي تخون قضيتها وتهرّب السلاح للفلسطينيين – الأعداء، مقابل حفنة من الدولارات. ووجدنا اليهودية الساقطة في الفاحشة التي تحاول الهرب من سقوطها وعارها بالارتماء في الأحضان العربية والزواج من أحد الشباب العرب.. ونعثر في رواية الأرض المحتلة – كذلك – على أدعياء السلام ومروجيه من اليساريين اليهود، الذين يتمسكون بصهيونيتهم حين تصل

الأمور إلى حقوق الشعب الفلسطيني. كما نعثر في هذه الرواية على الأكاديميين والمثقفين اليهود الذين تتلاشى أصواتهم وتذهب أدراج الرياح في خضم التطرف والغطرسة الصهيونية.

ونعثر في هذه الرواية على اليهودي المستوطن، لكنه ليس ذلك الذي عرفناه في روايات العقد الرابع، مستجدياً متوسلاً بأن يقبله الفلسطينيون بينهم وبجوارهم.. نعثر عليه في هذه الرواية وقد نمت أظافره وقويت شوكته، وصار يطارد الفلسطيني بسلاحه، بل يقتله ويطرده من أرضه وبيته. يهدد الفلسطيني دون وجل، تحرسه حكومته وبطش جنوده المدججين بالسلاح..

لقد قدّمت رواية الأرض المحتلة هذه النماذج اليهودية وغيرها التي تضع دائماً هدفاً واحداً لمرماها وخططها: " الإنسان الفلسطيني ". الإنسان الفلسطيني وأرضه وحقوقه، بل وتكوينه الاجتماعي والاقتصادي والنفسي. الإنسان الفلسطيني بجميع اتجاهاته وصوره وأماكن إقامته..

من هنا، فإن رواية الأرض المحتلة تستحق أن نعطيها قدراً أكبر من الاهتمام وتستحق من النقّاد والمثقفين العرب قدراً أكبر من الحفاوة والتقدير والمعرفة، فمعرفتنا برواية الأرض المحتلة تزودنا بمعرفة جديدة ونوعية للآخر، ومعرفة الآخر تزودنا بمعرفة جديدة للذّات وتضع أيدينا على أوجه قصورنا، وليس هناك أجدر من أصحاب الأرض والتجربة والمعرفة لتحقيق ذلك الهدف..

صورة اليهودي في رواية " الجانب الآخر لأرض المعاد ":

تحفل رواية " الجانب الآخر لأرض المعاد " بجزأيها " الجانب الآخر... "و "بقايا " لأحمد حرب، بعدد كبير وبارز من الشخصيات اليهودية، ولا أبتعد عن الحقيقة إذا قررت أنها تكاد تكون أكثر روايات الانتفاضة الأولى اهتماماً بهذه الشخصية في أشكالها وصورها المتعددة..

في الوقت الذي سخّر عدد كبير من روايات الانتفاضة الأولى صفحاته لرصد تطورات الانتفاضة وصور الاشتباكات الدامية اليومية مع الجيش الإسرائيلي وأجهزة قمعه المتعددة ومتابعتها، فإن رواية " الجانب الآخر..." تضيف إلى ذلك متابعة الشخصيات اليهودية نفسها ورصد نفسياتها وهمومها أحياناً.. ومن هنا، فإن الرواية تصبح نموذجاً جيداً وثرياً للتعرّف على صورة اليهودي بأشكاله ونماذجه المتعددة،

وهي الصور والنماذج التي لا تخرج عنها روايات الانتفاضة الأولى جميعها..

والمتتبع لصورة اليهودي في رواية " الجانب الآخر لأرض المعاد " يستطيع أن يرصد ثلاثة نماذج واضحة:

أولاً/ اليهودي البشع (جنود الاحتلال وضبّاطه):

لا تنفرد هذه الرواية في عرض هذا النموذج من الشخصيات، فكما أشرنا فإن روايات الانتفاضة الأولى خصصت صفحات طويلة منها لعرض هذا النموذج اليهودي البشع.. وذلك أمر طبيعي مادامت هذه الروايات قد أخذت على عاتقها تسجيل حركة الانتفاضة وصمود الشعب الفلسطيني في مقاومة المحتلين ورصدها في فترة مريرة وثريّة من تاريخ شعبنا الفلسطيني. وكأن هذا الصمود العنيد والإصرار الشرس على التشبث بالأرض والحقوق قد أفقد المحتلين صوابهم وفجّر مخزونهم من القمع والوحشية! فهل فوجيء المحتلون بهذا الشعب، الذي بدا ساكناً لفترة ما؟!.. هل فوجئوا بغضبته وبطولته في مواجهتهم بهذا الإصرار الذي وصل أحياناً إلى درجة الجنون؟! إذاً، تفجّر مخزون القمع والبشاعة لدى الآخر – اليهودي، وليس مهماً ان يكون الهدف صبّياً غضّاً، مجرد صبي لا يملك سلاحاً سوى الحجر:

((.. انهالوا عليه بالضرب من جديد وذراعاه تطوقان خصري. ضربوه على رأسه وكتفيه وعلى يديه محاولين حلّهما. غطيتُ رأسه بيدي محاولاً حمايته ولكن بدون فائدة. ركّزوا على يديه لإجباره على أن يطلقني. رجوتهم باسم الإنسانية أن لا يضربوه، أن يعاملوه كبشر، رد عليّ نفس الجندي بالإنجليزية: "أنتم بشر! سنذبحكم هكذا"، وأشار بحافة يده إلى عنقه ليريني كيف الذبح. ثم أخذ جنديان يسحبان الصبي من رجليه ومازالت ذراعاه تطوّقان وسطي. سحباه بعنف وسحبني معه وهو يصرخ: "أنا في عرضك، لا تتركهم يأخذونني"، ضعفت ذراعا الصبي فوقع على وجهه على الأرض. جرّوه على بطنه وهو يصرخ: "أنا في عرضك أنا في عرضك، لا تتركني معهم"، رأيتهم يربطون يديه ويحملونه معهم إلى سياراتهم العسكرية. رجعت أجرجر أذيال هزيمتي. أسندت رأسي على مقْود سيارتي وصراخ الصبي يقرع في أذني. وفي لحظة المهزوم المقرّ بهزيمته تناولت مذكرتي وكتبت بيد مرتجفة:

١٩٨٨/١/١ ..))[٣]

كان هذا بسبب قذف حجر، فماذا إذا رفع الفلسطينيون علَمَهم؟! ((.. ثم

أمروني أن أصعد على ظهر السيارة وأُنزل العلم بواسطة كلاّب أعطوني إياه لذلك الغرض. انصعت للأمر وأنزلت العلم..))[٤]

لكن اليهودي البشع لا يقبل بهذهَ النتيجة، عليه إذاً أن يمعن في حقده وعليه أن يستمر في إذلال الفلسطيني وإهانته والمساس برموزه:

((.. أنا بقول بِدوس عليه، صرخ الجندي

لا أستطيع

مسكني من عنقي بيده اليسرى ولكمني بقوة على وجهي بيده الأخرى.

بِدوس عليه

بما أنها وصلت إلى هذا الحد لن أفعل

بتْموت

اقتلني فلن أموت إلا مرة واحدة. لن أدوس عليه وافعل ما تشاء))[٥]

وهذا عقاب آخر للعلم الفلسطيني – الرمز:

((.. تناول العلم عن ظهر الخزّان وقال: (عرب كذّابون تحتفلون بعلم المخربين). لم نجبه. أخرج صندوق ثقاب من جيبه وأشعل طرف العلم. بقى رافعاً العلم في يده حتى أتت عليه النار..))[٦]

ماذا لو قرر الفلسطيني أن يتحمّل الضرب والإهانة ويتغلّب على ذلك بالضحك – مثلاً؟!

((اخرس " صاح الجنود " وهددوا بإبقائنا على حالنا في الشمس ثلاثة أيام إذا لم نقُم بالعدّ بطريقة صحيحة. صفّونا في الطابور مرة ثانية وأمرونا بالعدّ. وقبل أن يقول أوّلنا " الله واحد " ضحك " اخرس اخرس " علت ضحكة من وسط الطابور " كلّه يخرس " وارتفع ضحكنا وهم يصرخون علينا ويدفعوننا بأعقاب بنادقهم وأصبح عجزهم واضحاً في إخماد ضحكاتنا..))[٧]

وماذا لو هتف الفلسطينيون وهم يشيعون شهداءهم؟!

((.. يالهي، قلت في نفسي، هتافنا يقلقهم، أحزاننا تقلقهم، دموعنا تقلقهم، ضحكنا يقلقهم، بالأمس أطلقوا النار علينا لأننا ضحكنا، ركلوا، ضربوا، صرخوا علينا! كان ضحكنا حجارة تساقطت عليهم من السماء ولم يجدوا منها ملجأ..))[٨]

وإذا أقدم الفلسطيني بعد ذلك على الانتقام لضحاياه وشهدائه يلجأ اليهودي البشع إلى

نسف البيوت وتدميرها:

((ما هي إلا لحظات حتى سمعنا دوي انفجار ورأينا حجارة بيت تتطاير في السماء، وغيمة من الغبار تنتشر وتغطّي الحي، تقدّم الضابط وقال: هل تعرفون بيت من نسفنا؟ بيت مصباح أبو ديّة أحد المخربين الذين قُتلوا أمس..))[٩]

أما إذا فشل اليهودي القمعي البشع في معرفة البطل الذي قام بالعملية، فيكون التفجير والتدمير عشوائياً انتقامياً:

((.. أعتقل الشيخ محمد أكثر من مرّة. كان من المشبوهين الرئيسيين في تنفيذ العملية ضد المستوطنين. لم يعترف ولم تثبت عليه التهمة. لم ينسف بيته ولم ينسف بيت أي واحد من الذين نفّذوا العملية. البيوت التي نسفها الجيش في أعقاب العملية لم يكن لأبنائها أية علاقة بالعملية. نسفت بدون أي تحقيق لأن الجيش يريد أن ينسف لأن كل فرد من أبناء القرية سواء شارك في العملية أم لم يشارك هو مذنب..))[١٠]

ومع سقوط الشهداء واحداً تلو الآخر ترق قلوب الأمهات بل تنفطر على فلذات أكبادهن وفي لحظة ضعف تقوم إحدى الأمهات بتسليم ابنها المطارد لقوات الاحتلال أو بالأحرى تبلغ عن مكان اختبائه، بعد أن وعدها اليهود بعدم قتله، وأنهم سيكتفون بسجنه فقط! فهل أوفى اليهودي البشع بوعده؟!

((.. نكثوا عهدهم وقتلوه. باغتوه في مخبئه وقتلوه قبل أن يمد يده على سلاحه. حملوا جثته في سيارة جيب مكشوفة وداروا بها في شوارع العين ورأسه يلوح للناظرين..))[١١]

وماذا بعد أن يوافق اليهودي البشع على تسليم الجثة لدفنها؟!

((.. ويا لهول ما رأت عيناه.. لم يميّز رأس الجثة.. انهار على ركبتيه وأخذ يحفن التراب ويعفره في وجوه الواقفين حوله..))[١٢]

حتى بعد دفن الجثة، فاليهودي البشع يلاحق الفلسطيني ويصرُّ على إهانته وإيلامه:

((.. ماذا تقول للأب الذي أجبره الجنود على أن يُخرج جثة ابنه الشهيد من القبر بعد أن مضى على دفنه أربعة أشهر؟ لماذا؟ لأنهم يريدون هويته الإسرائيلية التي دُفنت معه في جيب قميصه. كان ذلك أشد إيلاماً من يوم استشهاده، هل تتصور ذلك؟..))[١٣]

ليس اليهودي البشع هنا، شخصاً أو أشخاصاً بعينهم! إنها مؤسسة كاملة قائمة على القمع والوحشية، وعناصر هذه المؤسسة من جنود وضباط احتلال مترعون بحقدهم وقسوتهم وكأنهم قادمون من أودية السعير، تضخ عيونهم وأياديهم ورشاشاتهم ودباباتهم وحشيةً وموتاً! وليس هناك من سبب سوى أن هذا الفلسطيني لا يريدهم محتلين لأرضه ومصادرين لحقوقه وإنسانيته!

ثانياً/ اليهودي المتطرّف (المستوطنون الجُدد):

ما نعنيه بالجدّة هنا، هو اختلاف أسلوب هؤلاء المستوطنين عن مثيله في بداية حركة الاستيطان الصهيونية، فلقد عرفت الحياة الفلسطينية، كذلك الأدب الفلسطيني، قصصاً ونماذج كثيرة تبيّن طريقة تغلغل هؤلاء المستوطنين في الوطن الفلسطيني من خلال أسلوبهم الماكر المعتمد على الدهاء وإظهار الرغبة في العيش بسلام وحُسن الجوار..

إلا أن المستوطن الجديد الذي تبرز هذه الرواية صورته هو شخص مختلف تماماً. لقد نمت أظافر هذا المستوطن وقويت شوكته وأصبح – إضافة إلى جنود الاحتلال – طرفاً مباشراً في تهديد حياة الإنسان الفلسطيني ونهب أرضه وإهدار كرامته..

لقد جاهر هذا المستوطن بعدائه ورغبته في طرد الفلسطيني من "أرض الميعاد" ورفع سلاحه لتحقيق هذا الهدف، ولم يعُد ذلك القادم الفقير الوديع الراغب في الحياة بسلام. ذلك المستوطن الذي خَدَع بعض الفلسطينيين فعطفوا عليه وسمحوا له بالعيش بجوارهم، مثل أهل الخليل!

لكن حكاية أهل الخليل مع المستوطنين لا تبدأ منذ مائة عام فقط، بل هي بدأت منذ آلاف السنين، منذ حكاية " **قدّ جلد الثور قدّ** "، فما هي هذه الحكاية؟.. تقول "بقايا" عن هذه الحكاية وعن الطريق الذي يربط العين ببئر السبع وهو في منطقة الخليل:

((هو طريق وعر يتعرج عبر وادٍ سحيق يُقال إن سيدنا إبراهيم الخليل قد أوى إليه وتملّكه من أصحابه الأصليين بالحيلة والدهاء. قال لهم أريد قطعة من الأرض "قدّ جلد الثور قدّ" لأسكن عليها أفلا تكْرمون لي؟ قالوا له "أبشر، فلن تجدنا إلا كرماء"، كانوا يعتقدون عندما أخذتهم نخوة الكرم بأن إبراهيم بحاجة إلى قطعة أرض بمساحة

جلد الثور لينصب خيمته عليها، وما كان في نفس إبراهيم غير ما كان في نفوسهم، فأخذ "يقدُّ جلدَ الثور قدّاً" ويصنع منه سيوراً رفيعة طوّق بها جميع المنطقة من الحرم الإبراهيمي شمالاً إلى "عراق الأبرق" جنوباً..))[١٤]

بعد هزيمة عام ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل للضفة الغربية جاء الحاكم العسكري الإسرائيلي إلى الخليل، وطالب بتنفيذ الاتفاق، لكن الفلسطينيين رفضوا وقالوا: **((.. أنتم تطالبون بتنفيذ اتفاق باطل لم يتم. هذا إبراهيم اللي بتحكوا عنّه، لا شفناه ولا منعرفه، هذا حكايته في الزمان أنّه أجا على البلاد لا وراه أهل ولا عزوه وقال الناس يا جماعة أعطوه زي ما طلب "قدّ جلد الثور" وقديش الأرض بدها تنقص من جلد الثور؟..))**[١٥]

لكن هذا لم يعد مفيداً فالحاكم العسكري الإسرائيلي يقرر بحسم:

((.. نحن سوف نطبق الاتفاق على مراحل، نبدأ بإعادة بناء مدينته "كريات أربع" وإعادة استملاك الأراضي الواقعة غرب جنوب قرية العين خلف مقام "أبو خروبة" وإذا كان لديكما أي اعتراض على فهمنا للاتفاق فبإمكانكما أن تتوجها إلى محكمة العدل العليا في خلال شهر من هذا اليوم..))[١٦]

وسواء أكانت هذه الحكاية رمزية أم أن لها جذوراً في التراث الشعبي، فهي تلخص دون أدنى شك منهج استيلاء الإسرائيليين على الأرض الفلسطينية وبناء المستوطنات عليها.. وهكذا نشأت مستوطنة "كريات أربع".. **((.. التي خرج منها شيطان ملتحٍ مع آذان الفجر في يوم جمعة يتيمة وقتل أبا قيس بأربعين رصاصة وتسعة وثلاثين من المصلين معه في البيت المسمّى باسم إبراهيم..))**[١٧]

لكن أحقاً كان سيدنا إبراهيم – أبو الأنبياء – الذي سمّانا المسلمين – متآمراً علينا، وعلى قتلنا؟ أم أنها مسألة تفسير الحكاية؟! :

((هل كنت تعرف يا أبا قيس أن إبراهيم الذي تقمصت اسمه وصليت في محرابه وذكرت دعاءه لإسماعيل وأنتما تهمان بالرحيل إلى الصفا والمروة "ربِّ اجعل هذا البلد آمناً" هذا إبراهيم قد تآمر على قتلك قبل آلاف السنين؟ أم أن المسألة كلها هي مسألة تفسير الحكاية، فمنطق التفسير يعتمد على قوة المفسّر. "قدّ جلد الثور قدّ" قال لهما الحاكم العسكري، هكذا نفسر "قد" الثانية التي نسيتموها ونحن نملك قوة الرواية وقوة التفسير وقوة التنفيذ..))[١٨]

إن المستوطنين الغلاة المتطرفين لا يحتاجون إلى مثل هذه الحكايات والتفسيرات لبناء مستوطناتهم والاستيلاء على أراضي الفلسطينيين، أمثال أبي إسماعيل إبراهيم الأفاضل:

((وكانت "إيرتز إسرائيل" من بعدها، أقاموها على أرض أبي إسماعيل إبراهيم الأفاضل، وضمّوا إليها جميع حقول شقائق النعمان خلف مقام "أبو خروبة" وأعلنوها محمية طبيعية.. وكبرت المستعمرة وتحولت الحقول إلى منابت تصدّر شقائق النعمان إلى أوروبا..))[١٩]

بعد ذلك، من يلوم الفلسطيني، صاحب الأرض، إذا أقدم على قتل الحاكم العسكري الإسرائيلي والمستوطن الذي سلبه أرضه؟!..

أغرب من ذلك كله، ما حدث مع "وحيد سالم" وأرضه التي تسمّى "خلة أم سدرة" فبعد إثبات المواطن الفلسطيني لملكيته للأرض بعد الذهاب إلى تركيا وإحضار أوراق الطابو الأصلية، ماذا كان قرار محكمة الاستيطان الإسرائيلية:

((.. وعليه، يحق للسلطة الحفاظ على الطبيعة التابعة لحكومة دولة إسرائيل، أن تضع يدها على الأرض المتنازع عليها والتي يسميها المدّعي وحيد سالم بلغة الفلاحين المحلية "خلة أم سدرة" والواقعة في الجنوب الغربي لمستوطنة "إيرتز إسرائيل" وتحولها محمية طبيعية تلتقي مع المحمية الطبيعية للمستوطنة المذكورة. وبموجب هذا القرار يحق للمدعي بأن يتصرف بالأرض التي تقع مباشرة حول السدرة ومساحتها ألف متر مربع لأن الطابو الذي أبرزه المدعي أمام هيئة المحكمة لا ينطبق إلا على الأرض التي تحيط بالشجرة بحوالي ثلاثة وثلاثين متراً من كل جانب، وعلى المدعي أن يرتب كيفية وصوله إلى الموقع المشار إليه في نص القرار بالتنسيق مع السلطات العسكرية المختصة في مكان سكناه.. صدر في القدس في ١٩٩١/١٠/٣٠..))[٢٠]

إلامَ ترمز هذه القصة؟! أترمز إلى حل القضية برمتها حسب نهج أوسلو الذي سيسمح في النهاية بقيام دولة محاطة بالمستوطنات والطرق الالتفافية، ليسيطر الإسرائيليون على هذه الدولة ويتحكموا فيها؟ إلى مدينة القدس، التي يصرُّ

الإسرائيليون على عدّها "عاصمتهم الأبدية" ولا يعترفون بالحقوق الفلسطينية فيها، حتى وفق قرارات مجلس الأمن "الجائرة"؟! ويعرضون فقط، سيادة فلسطينية أو (إسلامية) على منطقة الحرم القدسي، ليظلّوا متحكمين في المنافذ وطرق الوصول إليه؟!

والمُرجح عندي أن أحمد حرب كان يرمز إلى القدس وليس إلى الدولة "المقترحة".

ثالثاً/ اليهودي المتعاطف (دعاة سلام مزيفون أو مواطنون هاربون من أقدارهم):

إذاً، ثمّة نوعان من اليهودي المتعاطف:

أ. يهودي متعاطف لهدف

ب. يهودي متعاطف لضرورة

وهذا مثال على **النوع الأول**، ولنتمعن في أطروحات "بناء جسور الثقة بين الشعبين" التي يقترحها هذا "الداعية" الخطير..

((.. لن تنجحوا في كسب العطف اليهودي وبالتالي جَسر الهوة بين شعبينا، إلاّ إذا خاطبتم مخاوفه مباشرة. وبناءً عليه فإنني أقترح عليكم كمبادرة حسن نيّة أن تصدروا في نهاية الاجتماع بياناً تعترفون فيه أن ما يسمّى بفلسطين هي "إيرتز إسرائيل" ويحق للشعب اليهودي أن يقيم دولته على أي جزء منها. وبعدها يكون الشعب الإسرائيلي أكثر تفهماً لحقوقكم في الجانب الآخر لأرض الميعاد..))[٢١]

كان المتحدّث السابق هو "يوسي" رجل الحوار وبناء "جسور الثقة بين الشعبين"، وهو نفسه ضابط المخابرات المكلّف باختراق التنظيم الفلسطيني، عن طريق الفتاة الفلسطينية "وديعة" إذ ادّعى أنه يحبها ويرغب في الزواج منها!!

وثمّة أمثاله من الأكاديميين والمثقفين الذين سُخّروا لتنفيذ خطط أجهزة المخابرات الإسرائيلية، والذين لا يتورعون عن إحداث الوقيعة بين الفلسطينيين. وقد تمكّن هؤلاء الإسرائيليون – للأسف – من استلاب بعض المثقفين الفلسطينيين أمثال "هادي"، الذي جعل من بيته ومكتبه وجريدته منابر لشعاراتهم وسمومهم، لكنهم لم يتمكنوا من خداع المثقف الحقيقي، الذي يعبّر عن نبض الجماهير وينتمي إلى صمودها وإصرارها على المقاومة. ومن أشكال هذه المقاومة كشف الخداع والتزييف باسم السلام والثقافة "وجسر الهوة بين الشعبين".. لأن هدف هذه المجموعات المشبوهة، كما أعلن "يوسي" نفسه: " حق الشعب اليهودي في أن يقيم دولته على أي جزء من الأرض الفلسطينية " ولا يبقى بعد

ذلك، سوى أن نعترف لـ"يوسي" بحق هذه الدولة في طرد الشعب الفلسطيني (الأغيار) من دولة "أرض الميعاد"!!

إن هذه الفئات التي تنتمي إلى حركات السلام الإسرائيلية، حتى المخلصة منها، لا تستطيع أن تتخلص من ولائها الصهيوني بل أحياناً من شعارات اليمين الإسرائيلي. يقول د. رشاد الشامي: ((.. **ينبغي أن نشير هنا إلى أن هذه الحركات تظل مرتبطة بما أطلقنا عليه " صهيونية الحد الأدنى " كما أن قضايا الأمن الإسرائيلي لديها لها أهمية خاصة لا تختلف كثيراً عن سائر القوى الصهيونية اليمينية وخاصة في مسألة القوة النووية الإسرائيلية وسياسة الردع، بالإضافة إلى أن معظمها يؤكد على مبدأ " القدس الموحدة " والعاصمة الأبدية لإسرائيل..**))[٢٢]

أمّا **النوع الآخر** لليهودي المتعاطف، فهو المتعاطف لضرورة، وتُمثّل هذا النوع اليهودية "أرنونا".. وأرنونا هذه، يهودية يمنية هاجرت عائلتها في الخمسينات من اليمن حيث كانت تعيش مع العرب بعاداتهم وتقاليدهم وظلّت هذه العائلة متمسكة بالعادات العربية.. ووجدت "أرنونا" بعد أن كبرت أن حياة العرب هي حياتها، فقررت الانخراط فيها وأخذت تتقف نفسها في الدين الإسلامي.. وعندما تعلقت بالشاب الفلسطيني المسلم "هادي" قررت إعلان إسلامها وتسمّت باسم "إيمان" ثم تزوجته..

ما بين التعاطف والزواج من العربي المسلم والعيش مع عائلته في قرية العين، واجهت هذه اليهودية مواقف وصعوبات كثيرة من الطرفين: العربي واليهودي.. فالعرب لا يقبلونها بينهم ويشكّون في إخلاصها ((.. **لا أعتقد أن هناك جهنم أسوأ من الحياة بين العرب لإمرأة في مثل وضعي. أصلاً حماتي العربية لم تنادني طوال حياتي معها إلاّ "بالشرموطة"، وعندما قُتل شباب في القرية نتيجة إطلاق النار عليهم من قبل جنود إسرائيليين، جاءني أهل القرية وسألوني ما هو رأيك بما يفعله أبناء شعبك لأبنائنا. قلت لهم أنا واحدة منكم. هزّوا رؤوسهم ونادوني باحتقار..**))[٢٣]

اليهود – كذلك – يرفضون هذا الزواج ويعدّون اعتناقها للدين الإسلامي جريمة لا تغتفر.. لذلك، يقدمون على تهديدها، ثم إهانتها، بل وإجهاضها وحرمانها من الأطفال! ((.. **طلبني الحاكم العسكري أول مرة عندما كنت حاملاً في الشهر الثالث. جلس حولي مع نائبه وكبار الضبّاط العسكريين. تهجّم عليّ وعلى زوجي. ناداني بالعاهرة الزانية الخائنة لشعب إسرائيل، "تريدين أن تحملي وتلدي مخرّباً ينضم إلى فتح، مستحيل**

مستحيل أن أسكت وأنت تحملين مخرّباً في بطنك". في مساء ذلك اليوم حضر أخي وأختي برفقة رجل مخابرات ومجموعة من الجنود. فرض الجيش منع التجول على الحي. فتحوا الباب عليّ بالقوة وجرّوني إلى داخل المغارة. ضربوني على بطني وعلى ظهري، أرهبوني وأجهضت الجنين..))[٢٤] وقد كرروا هذه الفعلة مرة ثانية وثالثة..

قد نتفق مع د. عادل الأسطة في كثير من تساؤلاته عن واقعية هذه الشخصية، ونضيف إلى ما يقوله أن ثمة بعض التناقض في بنائها ومواقفها.. وهذا ما دفعنا لأن نضعها ونصنفها في قائمة الشخصيات اليهودية المتعاطفة لضرورة. يقول د. عادل الأسطة: **((.. ولا نريد أن نحاكم مدى واقعية هذه الشخصية ولا نريد أيضاً أن ندرس حالات اليهوديات اللاّتي تزوّجن من عرب وما ألمّ بزواجهن لنعرف إن كانت (أرنونا) الاستثناء أم القاعدة! نحن في الرواية أمام حالة واحدة، حالة تنتهي في مرحلة السلام، بعدم التعايش واستمراريته، بدلاً من التعايش الذي يفترض أن يؤدي إليه السلام.. حقاً إن كل المعطيات التي تقولها الرواية حول هذا الزواج تشير إلى أن النهاية التي آل إليها هي المتوقعة، فـ"هادي" أخذ يحتقرها، والجيش الإسرائيلي ضايقها، وحياة القرية بدت لها صعبة جداً، وسلفيا أصبحت عشيقة لهادي، ووحيد متزوج ويرفض أن يقيم معها علاقة ما عرضتها هي عليه حتى تثأر من خيانة زوجها هادي لها. حقاً إن المعطيات كلها تجعل النهاية ممكنة..))**[٢٥]

نعم، لقد كانت النهاية ممكنة، بل وحتمية لكن ليس للأسباب التي ذكرها د. عادل الأسطة فقط. وإنما لسبب أوْجه وأكثر إقناعاً منها. لنقرأ اعترافات "أرنونا" في نهاية الرواية:

((.. لم أحظَ بحنان الوالدين منذ أن كنت في الرابعة عشرة، وقد يكون السبب في ذلك اغتصابي من قبل جنود وأنا أعمل في سلاح المدرعات. تغيّرت نظرة والدي تجاهي خاصة وأن المغتصبين خرجوا بحكم بسيط وسهل جداً وأشاروا إليّ بإصبع الاتهام في تلك الفترة. حاولت أمي أن تقتلني وطعنتني في ظهري بسكين في إحدى المشاجرات معها، وأجبروني على الزواج من يمني مطلّق يكبرني بعشرين سنة اكتشفت أنه مدمن على المخدرات ومحتال، فطلقته بعدما أُجبرتُ على التنازل عن حقوقي وكل أملاكي له. فاليأس والعار دفعاني بأن أتزوج العربي الذي يسمّى هادياً عندما سنحت لي أول فرصة..))[٢٦]

إذاً، هما اليأس والعار اللّذان دفعا "أرنونا" إلى حياة العرب والمسلمين، ليس حباً وعشقاً لهم ولعدالة قضيتهم، بل رغبة دفينة في الانتقام من شعبها الذي خذلها وأخذ يحتقرها وينغّص عليها حياتها. لماذا لا تلجأ إذن إلى " **تعاطف الضرورة** " وتحاول الخلاص من واقعها عسى أن تجد واقعاً أرحم وأكثر أمناً؟! لكنها لم تحقق ذلك! فالواقع الفلسطيني لا يقل تعاسة عن واقعها وتعقيداته أكثر من أن تستوعبها، كما أن الفلسطيني الذي عدّته خشبة النجاة لحياتها كان يبحث عن زورق جديد لطموحاته وأحلامه!! لقد التقيا لضرورة وافترقا لضرورة أخرى، ولم يجمع الاثنين حبٌ حقيقي!! لتشكر "أرنونا" ربها الجديد كما تشاء ((.. **أشكر الرب لأنني عدتُ يهودية، وأنا مستعدة لتحمّل كل ما يواجهني ولو ناداني شعبي بالزانية..**))[٢٧]

بقي أن نشير إلى أن الرواية تعرض شخصيات يهودية أخرى، مثل شخصية المجندة التي تهرّب السلاح للفلسطينيين مقابل حفنة من الدولارات وبضع غرامات من الحشيش، كذلك شخصية التاجر السكّير، الذي لا يهمه سوى كسب المال، ولا يعنيه ما يفعله الفلسطيني الذي يعمل معه.. كما أن الرواية تشير إلى شخصية الضابط الذي يشعر "بالقرف" من وجوده في الضفة الغربية، ويخجل من مطاردة الصبية وملاحقتهم في الأزقة والحارات، ويتمنى العودة السريعة إلى زوجته وأطفاله.

* * *

خاتمة:

يمكننا الآن أن نسجل النقاط الآتية التي أبرزتها الدراسة:

١) إن رواية الأرض المحتلة تقوم بدور مهم حين تقدم شخصيات يهودية جديدة على الرواية العربية، وهي شخصيات منسوجة من خلال التجربة والاحتكاك الفعلي مع الآخر – اليهودي، والرواية إذ تسدُّ بهذا خانة كانت شاغرة في المكتبة العربية.

٢) تبرز ثلاثة نماذج للآخر – اليهودي في رواية " الجانب الآخر لأرض المعاد ": اليهودي البشع، الذي يمثله جنود الاحتلال وضبّاطه بصورة جليّة. واليهودي المتطرف، الذي يعبّر عنه المستوطنون الجدد. واليهودي المتعاطف، وتنقسم هذه الشخصية نوعين: متعاطف لهدف، ومتعاطف لضرورة. وتمثّل هذا النموذج مجموعات دعاة السلام المزيفين واليهودية الهاربة من قدرها وعارها..

٣) والنقطة الثالثة، والتي نعتقد أن الدراسة تنبّه عليها، هي الأهمية الكبيرة لمعرفة الآخر، ومعرفة أساليبه وطرق تفكيره، وهمومه وطموحاته. ذلك أن هذه المعرفة العميقة بالآخر تؤدي إلى التفكير في ضرورة تفحّص الذات ومعرفتها، وبالتالي مراجعة أخطاء وآثام هذه الذات، وتدبّر منهج التعامل مع الآخر – اليهودي ومع آخرين غيره..

وفي الختام، لابد من القول إن هذه الدراسة المتواضعة لا تزعم أنها أحاطت بالموضوع من جميع جوانبه فلابد لتحقيق ذلك من رفدها بمزيد من الدراسات والبحوث التي تُعنى برواية الأرض المحتلة، وهذا ما نأمل أن يتابعه النقّاد والباحثون.

الهوامش:

١. انظر: كتاب "اليهودي في الأدب الفلسطيني" عادل الأسطة، ص ٦٩ وما بعدها.

٢. أحمد حرب، روائي وأستاذ جامعي. وُلد في مدينة الظاهرية سنة ١٩٥١ متخصص في الأدب الإنجليزي وحائز على درجة الدكتوراه ويقوم بتدريس الأدب الإنجليزي بجامعة بيرزيت. صدرت له أربع روايات هي: "حكاية عائد" سنة ١٩٨٢، "إسماعيل" سنة ١٩٨٧، "الجانب الآخر لأرض المعاد" سنة ١٩٩٤، و"بقايا" سنة ١٩٩٦.

٣. رواية الجانب الآخر لأرض المعاد، ص ١٣.

٤. المصدر نفسه، ص ٩٥.

٥. المصدر نفسه، ص ٩٦.

٦. المصدر نفسه، ص ١٨٨.

٧. المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

٨. المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

٩. المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

١٠. المصدر نفسه، ص ٢٥٩.

١١. رواية "بقايا"، ص ١٣.

١٢. المصدر نفسه، ص ١٩ – ٢٠.

١٣. رواية الجانب الآخر لأرض المعاد، ص ١٢٤.

١٤. رواية بقايا، ص ٢٢ – ٢٣.

١٥. المصدر نفسه، ص ٥٨.

١٦. المصدر نفسه، ص ٥٩.

١٧. المصدر نفسه، ص ٦١.

١٨. المصدر نفسه، ص ٦١ – ٦٢.

١٩. المصدر نفسه، ص ٦٢.

٢٠. المصدر نفسه، ص ٧٠ – ٧١.

٢١. رواية الجانب الآخر لأرض المعاد، ص ١٤٣.
٢٢. إشكالية الهوية في إسرائيل، د. رشاد الشامي، ص١٩٨
٢٣. بقايا، ص ١٨٥.
٢٤. رواية الجانب الآخر لأرض المعاد، ص ٢٢٥.
٢٥. اليهود في الأدب الفلسطيني – مصدر سبق ذكره – ص ٢٦ – ٢٧.
٢٦. رواية بقايا، ص ١٨٤.
٢٧. المصدر نفسه، ص ١٨٥.

المصادر والمراجع

اولاً: المصادر

١- الجانب الآخر لأرض المعاد – رواية – أحمد حرب – منشورات جامعة بيرزيت - ط٢- ١٩٩٤.
٢- بقايا – رواية – أحمد حرب – ط١ – ١٩٩٦.

ثانياً: المراجع

١) الأسطة، عادل:
- أدب المقاومة.. من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات.. مطبوعات وزارة الثقافة. الفلسطينية، ط١، ١٩٩٨م.
- اليهود في الأدب الفلسطيني بين ١٩١٣ – ١٩٨٧، اتحاد الكتّاب الفلسطينيين، ط١، ١٩٩٢م.
٢) خضر، حسن: هوية الآخر، دراسات في الأدب الإسرائيلي، مطبوعات وزارة الثقافة الفلسطينية، ط١، ١٩٩٥م.
٣) الشّامي، رشاد عبد الله:
- الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس، كتب دار الهلال، العدد ٤٩٦، ١٩٩٢م.

- إشكالية الهوية في إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٢٢٤، أغسطس ١٩٩٧م.
٤) شتا، السيد علي: نظرية الاغتراب من منظور الاجتماع، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٨٤م.
٥) المشايخ، محمد: قراءة في أدب الأرض المحتلة، منشورات البيادر، القدس، ط١، ١٩٨٤م.
٦) موسى، شمس الدين: مراجعات ومتابعات في الرواية والقصة الفلسطينية، مطبوعات وزارة الثقافة الفلسطينية، ط١، ١٩٩٩م.
٧) الموسوي، محسن: الرواية العربية، النشأة والتحول، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.